فلسطينيات :

العـــزاب . . . !

للأستاذ نجاتي صدقي

تجاوز فهيم عبد الجواد الخامسة والأربعين ولا يزال عَزَباً. كم من مرة نصحته أمه في شبابه أن يدخر عندها كل يوم خمسة قروش فلا تمضي أربع سنوات أو خمس إلا وتكون قد جمعت له مهر العروس ... لكنه كان يقابل رأيها هذا بابتسامة ساخرة ويقول لها : حسن . هاك نصف جنيه عن عشرة أيام ! فينساها ، وتنسى أمه مسألة الادخار إلى أن تثار الحكاية من جديد ، فتنصحه ويدفع ، فينسى ، فتنسى ، وهكذا ظل فهيم دون زواج .

فكان مكبوت العاطفة ، رقيق الشعور نزقا في بعض الأحايين . وفي عصر أحد الأيام ، بينما كان يحاول إغلاق مكتبه الذي يتعاطى فيه أعمال تأجير البيوت ، جاءته فتاة أجنبية ، وسألته عن غرفة مفروشة أو غير مفروشة ، لكنها رجته وألحت في السؤال بوعدها خيراً ... ولما علم منها في سياق الحديث أنها جاءت المدينة في ذلك اليوم ، وأنها وحيدة لا أهل لها ولا ميل ، أحب أن يمثل معها دور العاطف عليها ، فحدثها عن مصاعب الحياة ، والحرب وذيولها ، وغلاء المعيشة ، وأزمة المساكن ، وكانت الفتاة توافقه تارة وتخالفه تارة أخرى ، وفي نهاية الأمر دعاها لتناول العشاء معه ، فترددت ، فأغراها بما كل المدينة القديمة الشرقية وبالتفرج على بيوتها وفرشها ، فترددت ثانية ، لكنها استعرضت في مخيلتها صوراً خيالية براقة قرأت في هذه الدعوة ما يكشف لها أسراراً طالما طالعتها في الروايات والقصص ، فأومأت إليه برأسها موافقة ، وذهبا سوية إلى مسكنه في دير الأرز الواقع في وسط المدينة القديمة .

كانت الساعة وقتئذ تقارب الثامنة مساء ، وقد انتشر الظلام في حارات المدينة وأزقتها ، ولم ينرها سوى قناديل زيتية تكاد لا تعكس ضوءها إلا على نفسها فقط ! . وكانت الفتاة تسير إلى جانب فهيم أفندي وتتعثر ، فيمينها بوضعه راحته تحت رسغها برفق ، وإذا ما تراءى له أنها ستقع ، تأبط ذراعها ، فتشكره بكلمات غير واضحة متقطعة . ولما اقتربا من الدير قال لها : حذار من إحداث ضجة أثناء دخولنا الدير . سيري على أطراف قدميك قالت : وهل من شيء تخشاه ؟ إنني ضيفتك ، ومن يجرؤ ويمانع في زيارتي لك ؟ ...

قال : للمسألة صلة بالتقاليد وليس بقواعد الاتيكيت . فمن عاداتنا ألا تزور امرأة رجلا أعزب في بيته .

قالت : حقاً إنها لعادة غريبة ! ...

ودخلا الدير كما أنهمها فهيم أفندي ، وصعدا إلى الطابق الثاني بهدوء مطلق ، ووجا الغرفة بهدوء أيضاً .

ودير الأرز هذا كان فيما مضى من الأيام ملجأ للمتعبدات اليونانيات ، إلا أنه تحول إلى مسكن لرقيق الحال من الناس ، فضمت جدرانه مهاجراً بولونياً ، ولاجئاً يونانياً ، ومجلد كتب ، وممرضاً ، وبائع الخضار ، وغيره بائع الألبان ، وصاحب مكتب تأجير البيوت فهيم عبد الجواد ، وكان جميع ساكني هذا الدير من العزاب ، ولذا كانوا يفرضون على بعضهم بعضاً رقابة أخلاقية شديدة الوطأة .

وما إن أجلس فهيم الفتاة إلى المائدة حتى سمع لغطاً خلف الباب ، ثم رأى وجهاً يطل عليه من النافذة التي تعلوه ، فعرف فيه وجه جاره مجلد الكتب ، وقد انقدت عيناه فقدتا أشبه بالجمر وأخذ ينقر الزجاج بسبابته مشيراً إلى فهيم أن يفتح باب الغرفة .

فما كان من فهيم إلا أن زجره ، لكن المجلد تمادى في النقر وعلى حين غرة حطم الزجاج بجمع يده فأحدث فيه فجوة ومد أصابعه منها إلى المزلاج الداخلي وفتحه ... وكان الهرج خلف الباب يتزايد ، ثم بادر المجلد فهيما بقوله :

— ألا تخاف ربك يا جاري ؟ !

فقال فهيم : خسئت أيها اللئيم ، إنهما ضيفي ، وحاشا أن أدنس بيتي ...

فقال المجلد : فوالله إن لم أقض السهرة برفقتكما أثرت سكان الحي عليكما ! ...

وكانت الفتاة ترتجف من شدة الخوف والفزع ، وكان زملاء